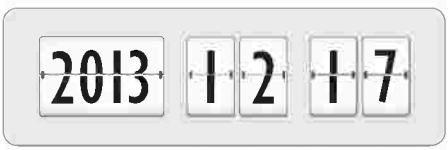

قالت هيلاري وفي صوتها حزن عميق: في التاسع عشر من آذار/مارس عام 1993م وقع حدث مروِّع؛ أُصيب أبي بسكتة، أخذت تشلسي من المدرسة وطرت مباشرة إلى جانب سريره، كان في الثانية والثمانين من العمر، وظل مواصلاً تدهور الصحة لبعض الوقت؛ تعرض لإجراء عملية إبدال شرايين وصار حبيس الكرسي المدولب، ومع ذلك لم أكن مستعدة لوداعه، جلست بجانب أبي المحتضر وغمرتني موجة مشاعر عنه وعن حياتنا معًا،الأسى على رحيله غيرني؛ جعلني رحيله شخصًا آخر.

قلت: حكمتك جعلتك تدركين ذلك يا هيلاري.

من كان يمكن أن يتصور أنني كنت سأبدأ بتذكر أحداث غير سارة عنه بجانب فراش موته، مثل إجباره لنا على البحث عن أغطية عبوات معجون الأسنان في الثلج والجليد ولم يكن مستعدًا ليقول: أحسنت يا هيلاري، مهما اجتهدت ومهما نجحت. تذكرت أن العاملين في البيت الأبيض لم يعجبوا به، وعدُّوه فظًا ووقحًا، بعضهم راح يلقبني بـ (طاغية) أيضًا، لا أظن أني طاغية مستبدة؛ لست إلا شخصًا يحاول بالطرق كلها الحصول على أفضل النتائج منهم، إلا أنني أرى أنني أحيانًا أتصرف كما لو كنت طاغوتًا، وإذا فعلت فنحن

نعرف المصدر الذي أخذت منه ذلك، أدركت عندئذ أن استعداد أمي لتحمل سوء معاملة زوجها كان قد شكل مجمل مقاربتي للزواج وللحياة بالذات كلها.

موت أبي غيرني؛ رحت أسأل عن معنى الحياة والموت بالذات، متى تبدأ الحياة؟ متى تنتهي؟ أو هل تفعل؟ لذت بديني بحثًا عن أجوبة، وقررت أن هناك أمورًا أكثر أهمية من السعي إلى امتلاك السلطة والنفوذ، عرفت عندئذ أنني أردت أن أعلم الناس عن الأرضية المشتركة التي نتقاسمها جميعًا، ولاسيما من يرون أنفسهم الآن أعداء ألداء، كان موت أبي ثمن وقوفي على الحقيقة، ألقيت محاضرة على أتباعي عن (الفراغ الروحي الكامن في قلب المجتمع الأمريكي، عن هذا الورم الخبيث في الروح).

وأنا في المستشفى وجدتني بغتة في دور عضو أسرة شخص على فراش الموت دفع أثمانًا لا تصدق، وقواعد تأمين غير قابلة للفهم، وصيغ مربكة، وكل هذا وأنا غارقة في حزن أقعدني عن التفكير، تحدثت مع مرضى آخرين وأفراد أسرهم ومع العاملين في المستشفى، مرة بعد مرة قال لي الأطباء إن كثيرين من مرضاهم لا يستطيعون تسديد ثمن الأدوية الضرورية، وكثيرًا ما يتناولون جرعات مقلصة لجعل وصفاتهم تدوم أطول، وهذا كله عزز إحساسي بمدى أهمية الرعاية الصحية.

في الوقت نفسه كان فريق عملي الخاص بالرعاية الصحية مجمدًا، وبعد غياب دام أسبوعين ونصف، قررت وجوب العودة إلى واشنطن لمدة قصيرة، وعلى الرغم من الساعات الطويلة التي أمضيتها معه، فإنني أستطيع أن أكون بجانبه في لحظة لفظه أنفاسه الأخيرة، وفيًّا لشخصيته إلى النهاية، لم يكن هيو رودهام قط قادرًا على منحي بركته الأخيرة أو إسماعي أنه كان يحبني، ولم أستطع أنا أيضًا أن أبلغه مدى ضخامة حبي له والأذى الذي سببه لي.

أضافت بين شهقات البكاء: مات أبي، وسواء أطاغية كان أم لا، فقد أحببته وحزنت عليه كثيرًا، لم أستطع استئناف العمل لأسابيع؛ حدادي يخترقني إلى

الأعماق، لا تكوني مثل الآخرين جميعهم الذين ينصحونني بالتغلب على الأمر. (قالت وهي تنظر إلي نظرة غير ودية)؛ لأنني لن أفعل أبدًا؛ لن أكون الشخص نفسه من جديد.

متأثرة بعمق، ناسية أنني محللة، ذهبت إلى حيث هيلاري وعانقتها عناق أم، بكت على كتفي على امتداد اللحظات الباقية من جلستنا.